المنهج التربوي لإعداد إخوان الصفا

الدكتور

حامد طاهر

الأستاذ المساعد بقسم الدعوة

ليس أحب إلى قلب أى مفكر ، مهما كان مزاجه الشخصى ، أن يرى أفكاره بين الناس منتشرة ، وأن يسمع اسمه جاريا على الألسنة . هذا أمر طبيعى لا غرابة فيه ، وإنما الغريب حقا أن نلتقى فى القرن الرابع الهجرى بموسوعة فلسفية ضخمة ، تطرح للجماهير ، دون أن يعُلن فيها عن أسماء مؤلفيها او المشتركين فى جمع مادتها ، وتنسيق أبوابها وفروعها، كل ما تفعله أنها تكتفى بالاشارة العامة اليهم ، محاولة رسم صورة مثالية لهم ، وداعية فى الوقت نفسه الى سرعة الاقتداء بهم ، والتمسك بصحبتهم المحتوية على (سعادة الدنيا والآخرة)[1] .

تلك هى جماعة إخوان الصفا[2] ، وهذه أول عقبة يصطدم بها الباحث فى فلسفتهم ، فإنه

---

(١) رسائل إخوان الصفا حـ٣/ ٢١ ، ٤/ ٩٩ ط القاهرة ١٩٢٨ (فى أربعة أجزاء بتقديم د . طه حسين ، وأحمد زكى باشا) وسوف نشير اليها فيما بعد بالرسائل اختصارا .

(٢) الاشارة الى هذا المصطلح وردت لاول مرة فى كتاب (كليلة ودمنه) الذى ترجمه ابن المقفع ، فى النصف الاول من القرن الثانى الهجرى ـ انظر : باب الحمامة المطوقة .

إذا كان أبو حيان التوحيدى ، المعاصر لهم (ت ٤٠٠ هـ) قد حدد أسماء طائفة منهم[٣] ، فإن الذى يبقى بعد ذلك هو سكوت التاريخ عن نشاط تلك الطائفة : كيف عاشت حياتها الخاصة ؟ ومن هو زعيمها ؟ وما هى اتصالات أعضائها ؟ وأى اتجاه فكرى أو عقائدى كان يجمعهم ؟ إلى جانب أسئلة أخرى يبقى بعدها جميعا سؤال كبير هو : هل هذه الطائفة من الاسماء التى ذكرها التوحيدى هى وحدها التى كونت جماعة إخوان الصفا ، أم أن هناك عددا آخر من الاسماء لم يذكره أبو حيان ، وبالتالى لا نعرف عنه شيئا[٤] ، ثم ما السبب فى ألا نسمع عنهم غير إشارة أبى حيان ، مع أن موسوعتهم الضخمة تؤكد أنها لابد أحدثت ، فى القرن الرابع الهجرى ، أثرا فكريا ، يعتقد أنه آثار الرأى العام حينئذ ، إنْ بالقبول وان بالرفض .

مهما يكن من شىء ، فإن المنهج الذى رسمته هذه الدعوة ، المجهولة المؤلفين ، لتخريج الرجال أو القادة ، كفيل بأن يلقى لنا استعراض خطواته كثيرا من الضوء على الشخصية المنشودة ، لهذه الدعوة ، وذلك فضلا عن أنه ربما قدم شيئا ذا قيمة فى ميدان آخر ، وهو الميدان الذى مازالت تجرى فيه حتى اليوم محاولات البحث للتعرف على الشخصيات الحقيقية لاعضاء تلك الجماعة [٥]. أخيرا ، فمهما قصر هذا البحث فى الوصول الى غايتيه السابقتين فإنه سوف يحتفظ بعرض متواضع لجانب هام من جوانب فلسفة إخوان الصفا وهى الفلسفة التى مازالت ، على الرغم مما بذل فيها من جهود حتى الآن، موضوعا للدرس والتحليل .

طبيعة الجماعة :

يقدم إخوان الصفا أنفسهم إلى الجماهير فى نص قوى ، أشبه ما يكون بتلك البيانات التى

---

(٣) الامتاع والمؤانسة ٢/ ٤ ، الليلة ١٧ ، والاسماء كما يلى : زيد بن رفاعة ، (خادمه أبو سليمان بن معشر البستى ، المعروف بالمقدسى ، أبو الحسن على بن هارون الزنجانى، أبو أحمد المهرجانى - العوفى .

(٤) تشير الرسائل الى ان القادة كانوا من كل الطبقات ، كما كانوا منتشرين فى كل مكان ٢/ ٢١٤ .

(٥) انظر (اخوان الصفا) للدكتور محمد غلاب ، حيث يعترف فى فصل (كيف تكونت الجماعة) بصعوبة المشكلة ص ١٧ - ١٦ ، العدد ١٩٠ ، المكتبة الثقافية بالقاهرة ١٩٦٨ .

تصدر من إذاعات العالم فى عصرنا الحاضر ، معلنة عن قيام ثورة أو مؤذنة بحدوث تغيير ، يقولون : (نحن جماعة إخوان الصفا . . أصفياء وأصدقاء كرام . . كنا نياما فى كهف أبينا آدم مدة من الزمان ، تتقلب بنا تصاريف الزمان ونوائب الحدثان ، حتى جاء وقت الميعاد ، بعد تفرق فى البلاد ، فى مملكة صاحب الناموس الأكبر ، وشاهدنا مدينتنا الروحانية المرتفعة فى الهواء)[٦] .

تلك هى إشارة البدء ، وهى تقفنا من أول وهلة على ان هناك هدفاً أكبر وأعمق من تأليف كتاب ، أو موسوعة علمية ، يقصد بها مجرد تثقيف الناس وتشير إلى أن وراءها جماعة منظمة تعمل لغرض محدد ، تلمح اليه ، ولا تصرح به ، لكنها على أية حال : جماعة متميزة ، لها خصائص يمكن تتبعها فى أناة وصبر (فمن علامات أولياء الله ، المبعوثين من موت الجهالة ، المنبهين من رقدة الغفلة ، المستبصرين بعين اليقين ، ونور الهدى ، العارفين بحقائق الأشياء وتغاير الأمور ، وتصاريف الأحوال ، فقد صارت الأيام كلها عندهم عيدا واحدا ، وجمعة واحدة ، وصارت الأماكن كلها لهم مسجدا واحدا ، والجهات كلها قبلة ومحرابا (أينما تولوا فثم وجه الله) وصارت حركاتهم كلها عبادة لله ، وسكوناتهم طاعة له ، استوى عندهم مدح المادحين، وذم الذامين ، لا يأخذهم فى الله لومة لائم ، قياما لله بالقسط شهداء لله بالحق ، وهم على صلواتهم دائمون[٧] ، فقلوبهم فى راحة من التعلق بالاسباب ، وأبدانهم فارغة عن تكلف ما لا يعنى به ، ونفوسهم ساكنة عن الوسواس ، وهم فى راحة من أنفسهم ، والناس منهم فى راحة وأمان ، لا يريدون لاحد سوءا ، ولا يضمون شرا لاحد من الخلق ، عدوا كان أو صديقا ، مخالفا كان او موافقا[٨] .

ولاشك فى أن هذا النص يتضمن دعوة واضحة إلى نوع من (الدين العالمى) الذى تنمحى

---

(٦) الرسائل ٤/ ٨٥ .

(٧) يورد أبو حيان نقاشا احتدم بين الحريرى والمقدسى ، والاخير من اخوان الصفا ، حتى وصل الامر بالحريرى ان يصيح فى المقدسى قائلا : (فما بالنا لا نرى واحدا منكم يقوم بأركان الدين ، ويتقيد بالكتاب والسنة ، يراعى معالم الفريضة ، ووظائف النافلة) الامتاع والمؤانسة ٢/ ١٤ .

(٨)الرسائل ٣/ ٢٩٧ ، ٢٩٨ .

فيه الحدود بين الأديان المنزلة ، ولا ينبغى أن ينخدع القارىء بتطعيم النص ببعض آيات القرآن الكريم ، التى وردت بالتأكيد فى غير سياقها . كما لا ينبغي أن يوحى إليه هذا الموقف المتسامح من الجماعة مع العدو والصديق أنه أمام جماعة صوفية ، قد قطعت أسبابها بالدنيا ، وأخلت صدورها من التعلق بها ، واستوى عندها - على حد التعبير - مدح المادحين، وذم الذامين . . لأننا ما نلبث أن نجد هذه الصوفية أو الشفافية قد اختفت أمام الدعوة إلى (تنظيم عقلى)، ينصب من العقل رئيسا على الجماعة ، ويلزمها قضاياه وشرائطه (. . . ونحن قد رضينا بالرئيس على جماعة إخواننا والحكم بيننا : العقل الذى جعله الله رئيسا على الفضلاء من خلقه ، الذين هم تحت الأمر والنهى ، ورضينا بموجبات قضاياه على الشرائط التى ذكرناها فى رسائلنا ، وأوصينا بها اخواننا) [٩] .

وإذا كان العقل هو رئيس الجماعة ، فقد كان من الممكن الاكتفاء بأن تلتقى هذه الجماعة على أسسه وقوانينه ، ولكن الأمر يتجاوز بالتأكيد هذا اللقاء الفكرى ، فيدعو الشخص إلى الانخراط الكامل فى جماعة لها سلوكها الخاص ، ومبادئها المعيّنة : (هلم إلى مجلس إخوان لك نصحاء ، وأصدقاء لك كرماء فضلاء أخيار علماء ، محبين لك متوددين اليك ، فيعرفوك ما لا تنكره ، ويعلموك ما تتيقنه ، ولا تشك فيه بشواهد من نفسك وبراهين من ذاتك ودلائل من جوهرك . . إذا انتبهت نفسك من نوم الغفلة ، ورقدة الجهالة ، ونظرت بعين البصيرة كما نظروا ، وسرت بسيرتهم العادلة كما ساروا ، وعملت بسنتهم الحسنة ، وتفقهت فى شريعتهم العقلية ، ودخلت مدينتهم الروحانية ، وتخلقت بأخلاقهم الملكية ، وعرفت آراءهم الصحيحة ، وتعلمت معلوماتهم الحقيقية)[١٠] .

مرحلة الاختيار :

الظاهر إذن اننا امام جماعة فكرية تدعو الناس جميعا إلى الالتحاق بها ، والسير على

---

(٩) الرسائل ٤/١٨١ .

(١٠) الرسائل ٣/٢١ .

طريقها ، وهى فى سبيل ذلك تتبع منهجا محكما لاختيار أعضائها فتبدأ باختيار الشباب ، السالمى الصدور ، والمتهيئين لقبول الدعوة بدلا من الشيوخ الذين تأصلت فيهم الآراء القديمة والعادات ، بحيث يصبح من العسير تغيير معتقداتهم ، أو حتى تعديلها : (لا تشغل بالك بإصلاح المشايخ الهرمة الذين اعتقدوا فى الصغر آراء فاسدة ، وعادات ردئية ، وأخلاقاً وحشة ، فإنهم يتبعونك ثم لا ينصلحون ، وان صلحوا قليلا قليلا فلا يفلحون ، ولكن عليك بالشباب السالمى الصدور ، الراغبين فى الآداب ، المبتدئين فى النظر فى العلوم ، المريدين طريق الحق والدار الآخرة ، المؤمنين بيوم الحساب ، المستعجلين شرائع الانبياء ، عليهم السلام ، الباحثين عن أسرار كتبهم ، التاركين الهوى والجدل ، غير متعصبين على المذاهب)[١١] .

هذه هى التربة الصالحة التى تتمكن الدعوة من أن تضرب فيها بالجذور : الشباب الخالص المتفتح الذى يشدو على طريق الأدب والعلم ، والذى لم ينضم بعد إلى واحد من الأحزاب السياسية ، أو الدينية التى كانت ظروف القرن الرابع الهجرى تسمح لها حينئذ بالنمو والانتشار[١٢] .

إن فى اختيار الشباب ، بالإضافة إلى أنه أخصب تربة لنمو الدعوة ، حماية لها وعونا ، وهذه الحماية قد لا تكون فى بداية الأمر حماية مسلحة ، ولكن الملاحظ أنها على أقل تقدير طاقة مختزنة يمكنها فيما بعد ان تدافع عنها بالجسد والروح . هذا اذا أضفنا انهم كانوا يفضلون نوعا خاصا من الشباب ، وهو ذلك النوع الذى يتميز بالعاطفة المرهفة تجاه الناس والأشياء : (ومن الناس من يرى ويعتقد فى دينه ومذهبه الرحمة والشفقة للناس كلهم ، ويرثى للمذنبين ، ويستغفر لهم ، ويتحنن على كل ذى روح من الحيوان . ويريد الصلاح للكل ، وهذا مذهب

---

(١١) الرسائل ٤/١٤٤ .

(١٢) كان للاسلام فى ذلك الوقت ثلاثة خلفاء متعاصرين : واحد فى العراق ، والثانى فى شمال افريقية والاخير فى أسبانيا ، ودارت الامارات الصغيرة فى فلك هؤلاء مستوحية فى ولائها مصلحة الاسر الحاكمة ، ولا يمكن فى هذا المناخ الا ان نتصور نشاط الاحزاب مشجعة من خصوم كل دولة ، بل وكل امارة - انظر : اخوان الصفا - للدكتور جبور عبد النور ص ٥، ٦ .

الابرار والزهاد والصالحين من المؤمنين ، وهكذا مذهب اخواننا الكرام)[١٣] .

إننا نتصور هذا الشاب الذى اجتمعت فى صدره فتوة الشباب إلى جانب فورة العاطفة قد انخرط فى الدعوة عن اقتناع فصار أعظم ما يكون إيمانا بها ، وأشدّ ما يكون إخلاصا لها ، وفداء فى سبيلها ، وهو نفس الشاب الذى ينشده إخوان الصفا ، ويرسمون لتنشئة منهجا محكما سوف نتتبع خطواته فيما يلى :

مرحلة الاعداد :

تتلو مرحلة الاختيار مرحلة أخرى طويلة ذات خطوات متتالية لإعداد الشاب اعدادا روحيا وعقليا وأخلاقيا حتى يصبح - على حد التعبير - انسان خير فاضلا أو أخا صفاء حقيقيا .

ونستطيع أن نقسم مرحلة الإعداد قسمين كبيرين ، يتضمن أحدهما منهجا للتطهير الجسدى والنفسى من عادات وطبائع معينة . ويشتمل الآخر على منهج لتكوين علمى وعقائدى وأخلاقى ، الغرض منه ، فى النهاية ، تخريج إخوان الصفا إلى الحياة ممارسين حقهم الموضح فى قيادة الناس جميعا نحو السعادة الكاملة[١٤] .

أول ما يتخلص منه أخو الصفا هو شهوات الدنيا ، وغرائز البدن التى تعتبر فى نظر إخوان الصفا ، حائلاً بين الإنسان والمعرفة ، فهم يقررون أن أسرار الدين وبواطن الامور الخفية ، وأسرارها المكنونة لا يمسها الا المطهرون من أدناس الشهوات وأرجاس الكبر والرياء[١٥] .

وإذا كان الامتناع عن الشهوات هو أول خطوة فى مرحلة التطهير، فإن ترك الفضول أو الاكتفاء بما هو ضرورى للبدن خطوة تالية تتقدم بالإنسان فى طريق المعرفة (واعلم إن كنت

---

(١٣) الرسائل ٤/١٠٨ .

(١٤) الرسائل ٢/١٩ ، ونحب ان نشير الى أن التقسيم عبارة عن محاولة لجمع وتنسيق مادة هذا الموضوع المتناثر فى رسائل اخوان الصفا كلها .

(١٥) الرسائل ٤/٤٧ .

محبا لأهل العلم والحكمة أنك تحتاج أن تسلك طريق أهلها وهو أن تقتصر من أمور الدنيا على ما لابد منه ، وتترك الفضول)[١٦] .

وفى نهاية هذه المرحلة ، يطالب أخو الصفا بأن يطرح على الأرض كل نزعات الجسد ، وأن يتطلع إلى عالم آخر روحى ، يسمو عن الرغبة فى الدنيا ، ويعتمد على التصوف والزهد (إن الافتخار والثناء ينبغى أن يكون فى اقتناء الفضائل الحكمية والزهد والتصوف ولزوم مذاهب الربانيين والتهاون بأمر الجسد)[١٧] .

النفس إذن هى جوهر الانسان ، وإذا آمن بذلك فما عليه إلا (أن يهتم بأمرها ، ويحرص على خلاصها من ظلمة الجهالة ، واستنقاذها من بحر الهيولى ، وعتقها من أسر الطبيعة)[١٨] ، ومحاولة الوصول بها إلى أعلى مراتب الانسانية ، وفى سبيل ذلك ، عليه أن يقوم بعملية اخلاء وتطهير للنفس من كل ما علق بها من الاخلاق والعادات الرديئة منذ الصغر ، وصار لها طبعا مع العادة (وأما رتبة الانسانية التى تلى رتبة الملائكة فهى أن يجتهد الإنسان ويترك كل عمل وخلق مذموم قد اعتاده من الصبا)[١٩] .

والخلق المذموم - فى رأى أخوان الصفا - هو كل خلق ينفر الناس من صاحبه - والواقع أن هذا أمر منطقى فى منهج يعد الإنسان ليكون قائدا لجماعة عليه ألا يظلم أحدا من الناس، أو يتعدى على الضعفاء منهم[٢٠] ، كما ينبغى عليه ألا يخون ، أو يكذب ، أو يخدع ، أو ينافق ، أو يعمل الخير رياء[٢١] ، يصون لسانه عن الفحشاء[٢٢] ، ولا يدخل فى منازعة أو خلاف (إياك والمكان الذى تكون فيه المنازعة والخلاف، وإن جرى (النزاع) وأنت فيه ، فاخرج ، وابتعد

---

(١٦) الرسائل ٢/١٧ .
(١٧) الرسائل ٣/٣٤ .
(١٨) الرسائل ٣/٣٤ .
(١٩) الرسائل ٢/١٤٦ .
(٢٠) الرسائل ٣/١٧٥ .
(٢١) الرسائل ٤/١٨٠ ٢٩٨ .
(٢٢) الرسائل ٤/٦٣ .

عنه)[٢٣] ، (فإن أردت أن تكون هاديا ، مهديا ، مؤيدا رشيدا ، فاترك الخصومات والأخلاق الرديئة والأعمال السيئة والأفعال القبيحة واجتنب الآراء الفاسدة)[٢٤] ، والخلاصة أنه لا ينبغى لإخوان الصفا أن يأتوا عملا يبعد الناس عنهم ، أو يفرق القلوب من حولهم .

بهذا تتم عملية التطهير ، لتبدأ بعدها مرحلة التكوين او الامتلاء . وأولى خطوات هذه المرحلة هو البحث عن المعرفة، أيا كان نوعها (. . وتعلم العلم أىَّ علم كان : حكميا أو شرعيا ، رياضيا اوطبيعيا اوإلهيا ، فانها كلها غذاء للنفس وحياة لها فى الدنيا والآخرة)[٢٥] .

وليس هذا العلم المطلوب ، أو تلك الثقافة المفتوحة بعيدة المنال ، إذْ هى مقدمة لاخوان الصفا فى تلك (الرسائل) البالغ عددها احدى وخمسين رسالة (وقد جعلنا الرسائل كلها على أربعة أقسام) :

القسم الاول : رياضية يُبتدأ بها .

القسم الثانى : جسمانية طبيعة يتلو بها .

والقسم الثالث : نفسانية عقلية من بعدها .

والقسم الرابع ؛ ناموسية إلهية هى آخرها[٢٦] .

وأهم ما تمتاز به ثقافة إخوان الصفا ـ كما تحددها رسائلهم ـ أنها ثقافة شاملة ، تستغرق كل شىء ، وتقف أمام كل جزئية فى الكون ، ولووقفة عابرة (من مذهب إخواننا الكرام ـ أيدهم الله ـ النظر فى جميع علوم الموجودات التى فى العالم من الجواهر والأعراض والبسائط والمجردات والمفردات والمركبات والبحث عن مباديها ، وعن كمية أجناسها وأنواعها وخواصها ، وعن ترتيبها ونظامها على ما هى عليه الآن)[٢٧] .

---

(٢٣) الرسائل ٣/١٧٥ .

(٢٤) الرسائل ٤/٧١ .

(٢٥) الرسائل ٤/٧١ .

(٢٦) الرسائل ٤/٣٢٠، ٣٢١ .

(٢٧) الرسائل ١/٢٣ .

وفى مقابل هذه الثقافة الشاملة ، لابد من توافر العقلية المرنة التى تأخذ المعرفة عن أى كتاب ، ليست عمياء بالتعصب ، أو مغلقة على مذهب واحد لا تقبل سواه (وبالجملة ينبغى لاخواننا - أيدهم الله تعالى - ألا يعادوا علما من العلوم ، أو يهجروا كتابا من الكتب ، ولا يتعصبوا على مذهب من المذاهب لان مذهبنا يستغرق المذاهب كلها . ويجمع العلوم جميعا)[٢٨] .

ويحذر إخوان الصفا صاحبهم من أن يتبلد شعوره أمام الحوادث التى تتكرر كل يوم ، فهو مطالب على الدوام بأن يكون يقظا متطلعا يطرح الاسئلة على عقله أمام كل شىء (إن مشاهدة جريان الامور دائما اذا صارت عادة قل تعجب الناس منها ، والفكر فيها ، والاعتبار لها ، ويعرض لهم من ذلك سهو وغفلة ، ونوم النفس ، وموت الجهالة ، فاحذر من هذا الباب - ياأخى - ولا تكن من الجاهلين)[٢٩] .

وكما يحذر إخوان الصفا من بلادة العقل أمام العادة ، يحذرون كذلك من الوقوع تحت وطأة التقليد ، لاسيما فى أمر الآخرة (إن أفضل العلماء هم أهل الله والورع الذين هم من أمر الآخرة على بصيرة ، لا على تقليد ورواية)[٣٠] .

أما طريق المعرفة عند إخوان الصفا فينحصر فى واحد من ثلاث : قوة الفكر الذى تدرك به النفس الموجودات المعقولات ، ومن هذا الطريق أخذت الأنبياء ، عليهم السلام ، الوحى من الملائكة[٣١] ، والطريق الآخر : السمع الذى تقبل به النفس معانى اللغات ، وما تدل عليه الأصوات من الاخبار الغائبة ، والأخير : طريق النظر الذى به تشاهد النفوس الموجودات

---

(٢٨) الرسائل ٤/١٠٥ ، وأيضا ٢١٦ .

(٢٩) الرسائل ٢/١٦١ .

(٣٠) الرسائل ٣/٢٧٦ .

(٣١) من الضرورى هنا التنبيه الى ان اخوان الصفا يضعون الفيلسوف فى مرتبة أعلى من النبى : (ان أتمّ الحيوانات هيئة ، وأكملها صورة ، وأشرفها تركيبا هو الانسان ، وأفضل الانسان هم العقلاء ، وأخيار العقلاء هم العلماء ، وأعلى العلماء درجة وأرفعهم منزلة هم الانبياء ، عليهم السلام ، ثم بعدهم فى الرتبة الفلاسفة والحكماء) الرسائل ٤/١٧٨ .

الحاضرة [٣٢] .

واذا كان الحق هو الغاية القصوى للمعرفة ، فإن دون الوصول إلى تلك الغاية عقبات ومشاكل ، وتوضح الجماعة لاخى الصفا أصلح الطرق للخروج من الإشكال إذا صادفه (اعلم أن الحق هو غاية ليس وراءها نهاية ، ولكن دونها أمور متشابكة مشكلة ، واعلم ان الالفاظ محتملة للمعانى ، والاوهام تذهب فى طلبها كل مذهب فينبغى لك إذا سمعت لفظة محتملة للمعاني ألا تحكم عليها حكما دون أن تبين بعقلك كل المعانى التى تحتملها تلك اللفظة ، لعلك تفهم الغرض الاقصى الذى هو الثواب ، وتبلغ الغاية القصوى التى هى الحق)[٣٣] .

وفى الواقع ، ليست الدعوة التى التوقف المستأنى أمام المشكلات إلا تمهيدا ذكيا من إخوان الصفا للتفرقة بين نوعين من المعرفة : نوع سطحى يدركه - على حد زعمهم - علماء الشريعة ، ونوع عميق لا يصل إليه إلا الراسخون فى العلم (إن لكل شيء من الموجودات فى هذا العالم ظاهرا وباطنا ، وظواهر الامور قشور ولباب ، وبواطنها لب ومخ ، وان الناموس هو احد الاشياء الموجودة فى هذا العالم منذ كان ، وله أحكام وحدود ، ظاهرة بينه يعلمها أهل الشريعة وعلماء أحكامها من الخاص والعام ، ولأحكامه وحدوده أسرار وبواطن لا يعرفها إلا الخواص منهم والراسخون فى العلم)[٣٤] .

هنا فقط يدرك عضو الجماعة أن لمعرفته حدودا يجب أن يقف عندها ويعلم أن وراء كل شيء سراً مغلقا لا ينبغى له اقتحامه ، وأخيرا فهو يقف على حقيقة نفسه ، وهى أنه ليس حرا فى اكتشاف الحق وحده ، ولا قادرا على الوصول اليه بمفرده ، لابد إذن من مرشد يأخذ بيده (واعلم - أيها الاخ - أن من سعادتك أيضا أن يتفق لك معلم ، ذكى ، جيد الطبع ، حسن

---

(٣٢) الرسائل ٣/٣٢، ٣٣ .
(٣٣) الرسائل ٤/١٣٨ .
(٣٤) الرسائل ١/٢٥٥ .

الخلق ، محب للعلم ، طالب للحق ، غير متعصب لرأى من المذاهب)[٣٥] .

وترتفع منزلة هذا المعلم حتى تصل منزلة الوالد لأبنائه ، بل إنها تفوق تلك الأبوة الجسدية الزائلة (واعلم أن المعلم والأستاذ أب لنفسك ، وسبيل لنشوئها ، وعلة حياتها . كما ان والدك أب لجسدك ، وكان سببا لوجوده ، وذلك أن والدك أعطاك صورة جسدانية ، ومعلمك أعطاك صورة روحانية)[٣٦] .

وهم إذْ يضيقون نطاق المعرفة على أخى الصفا عند هذا الحد ، لا يلبثون أن يمنحوه الأمل فى تخطى هذا النطاق والارتفاع من منزلته الى منزلة أعلى ، وهكذا يطبعونه على التطلع الدائم الى قمة تنظيمهم (فان استوى ان تكون فى أعلى المراتب وأعلى الدرجات فلا ترض لنفسك بالدون ، واجتهد فى الطلب ، فان الذين هم فوقك قد كانوا ، وليست هذه مراتبهم ، ثم اجتهدوا فى الطلب)[٣٧] .

ومع هذا ، فهم يعتذرون عن عدم إفشاء أسرار علمهم للناس بعذر لا يمكن قبوله على إطلاقه (واعلم - أيها الاخ البار الرحيم - أنا لا نكتم أسرارنا عن الناس خوفا من سلطة الملوك ، ذوى السلطة الارضية ، ولا حذرا من شغب جمهور العوام ، ولكن صيانة لمواهب الله ، عز وجل ، لنا)[٣٨] .

بقى أن نشير - فى مرحلة التكوين العلمى - إلى دعوة إخوان الصفا أتباعهم جميعا أن يحصلوا بصفة خاصة ، (علم أحوال القمر) وهو جزء من علم الفلك وذلك كبداية للافادة منه فى صلاح أى أمر من أمور الدنيا (لا ينبغى لأحد من أخواننا - أيدهم الله - ولا لأحد من أى الناس كان ، أن يبتدى بتدبير شىء من الأشياء ، ولا صنعة من الصنائع ، ولا عمل من

---

(٣٥) الرسائل ٤/١١٤ .
(٣٦) الرسائل ٤/١١٣ .
(٣٧) الرسائل ٤/٤٧ .
(٣٨) الرسائل ٤/٢١٥ .

الأعمال يريد به الصلاح فى أمر نفسه ومعيشته إلا بعد معرفة أحوال القمر ، لأنه اختص بتدبير عالم البشر(٣٩) .

وقد يكون هذا أمرا طبيعيا لاسيما بعد أن عرفنا نوع الثقافة الشاملة التى يحصلها أخو الصفا ، غير أن ما يفهم منه اعمق من هذا ، وهو محاولتهم وضع أخى الصفا فى منزلة الانسان الذى يسعى إليه الجمهور طالبا استشارته فى كل صغيرة وكبيرة . . والمستشار دائما قائد له حق السيطرة الروحية على سائليه ، والتوجيه لهم فيما يقصدون إليه ، وربما أكد ذلك الفهم دعوتهم الأخرى إلى ضرورة معرفة السحر والطالع وما إلى ذلك (واعلم ياأخى . . أنك وجميع اخواننا محتاجون إلى المعرفة بهذه الأمور (السحر ومعرفة الطالع الخ) لتكونوا أغنياء بما فى أنفسكم من المعارف والعلوم عن الحاجة إلى من لا يعرف قدركم ، فيكون له الفضل عليكم ، إذْ قد جهلتم ما علمه ، واحتجتم فيه اليه ، وليس هذا صفة اخواننا الفضلاء ، لانهم لا يرضون لأنفسهم الجهل)(٤٠) .

والظاهر أن اعتقاد أخى الصفا يحتوى على أن العالم مخلوق ، وأن له (بارئاً حكيما قادرا حليما جوادا كريما غفورا رحيما . وأنه قد أحكم امر عالمه على أحسن نظام ، ورتب تدبير الخليقة على أتقن حكمة . ولم يترك فيه خلل ، ولا تخفى عليه خافية فى الارض ولا فى السماء ، ولا يرى فى خلق الرحمن من تفاوت)(٤١) .

ولكن البحث عن نشأة الكائنات وتطورها فى فلسفة إخوان الصفا ينتهى بأنهم يقفون من الطبيعة موقفا ماديا ، ويفسرون نشأة الحياة على الأرض بصورة تجعلنا نتجاوز هذا النص السابق وأمثاله فى مجال البحث عن عقيدتهم فى مسألة خلق العالم ، فإنهم - فى الواقع يذهبون إلى القول بنوع من التطور الطبيعى بين الكائنات بدءا من الجماد ، فالنبات ، فالحيوان ،

---

(٣٩) الرسائل ٤/٤٤٧ .

(٤٠) الرسائل ٤/٤١٨ .

(٤١) الرسائل ٣/٨٧ ، ٨٨ .

وانتهاء بالإنسان . . ويستعيرون لتفسير هذا التطور نظرية الفيض التى تسربت إلى المسلمين من الفلسفة الافلاطونة المحدثة[٤٢] .

ومهما يكن من أمر البحث عن العقيدة الحقيقية لإخوان الصفا ، فإنه من الافضل أن ننبه إلى أن هذه مسألة لا ينبغى تلمس جوهرها (كله) فى الرسائل (وحدها) ، وانما يجب الاستعانة أيضا بما يقدمه لنا التاريخ الصحيح عن الحياة الخاصة لتلك الجماعة . لأننا امام دعوة تحاول جاهدة اخفاء اهدافها الحقيقية ، كما أننا فى مواجهة مؤلف ذكى يلعب بالالفاظ ، ويموه على القارىء العادى كثيرا من الحقائق .

بعد ذلك تأتى مرحلة التكوين الاخلاقى ، والغرض منها ان يحقق اخو الصفا عددا من الصفات والاخلاق الحميدة ، يتمكن بعد اكتسابها من ان يكون قدوة لغيره من الناس (وأما رتبة الانسانية التى تلى (تسبق) رتبة الملائكة فهى ان يجتهد الانسان ويترك كل عمل وخلق مذموم قد اعتاده من الصبا ، ويكتسب اضداده من الاخلاق الحميدة ، ويعمل عملا صالحا ، ويتعلم علوما حقيقية ، ويعتقد آراء صحيحة[٤٣] .

(واعلم - ياأخى - أن حسن الخلق ، والسيرة العادلة هما من أخلاق الملائكة)[٤٤] ، (وسبيلك أن تعود نفسك عمل الخير لأنه خير ، لا تريد بفعلك عوضا ، ولا يحملك على فعله خوف)[٤٥] ويلاحظ أن فكرة عمل الخير من أجل الخير ذاته - من الأفكار الأجنبية التى تسربت إلى المسلمين من الخارج ، وتكمن خطورتها فى أنها تفصل فكرة الخير عن الثواب الإلهى الذى ينتظر صاحبه فى الآخرة ، كما يحدث نفس الشىء بالنسبة إلى فكرة الامتناع عن الشر والخوف من العقاب الإلهى فى الآخرة ، ومن المعروف أن هذه الافكار مما شاع فى عالم التصوف ،

---

(٤٢) كانت هذه النتيجة هى ما انتهى اليه بحث سابق لنا ، بعنوان (فكرة التطور فى فلسفة اخوان الصفا) .

(٤٣) الرسائل ٢/١٤٦ .

(٤٤) الرسائل ٤/٦٧ .

(٤٥) الرسائل ٤/٢٩٨ .

وتصدى له علماء المسلمين[٤٦] .

ويوصى إخوان الصفا صاحبهم بأن تكون أخلاقه رضية ، وعاداته جميلة ، وأفعاله مستقيمة ، يؤدى الأمانة إلى أهلها ، كائنا من كان من ولى وعدو ، ويأخذ نفسه بحفظها ، ويرعى حق من استرعاه حقها ، ويحسن مجاورة جاره ، ويصفى مودة صديقه ، ويخلص المحبة لمحبه ، مع قلة الفزع فى مستعجل زائل ، وحادث نازل، ويريد للغير ما يريد لنفسه[٤٧] .

لكن أهم ما يميز أخلاق عضو الجماعة ، وهو فى الوقت نفسه أصل لكل الأخلاق التى يدعى إليها هو إيثار الغير ، أو إنكار الذات ، أو ما يمكن أن نطلق عليه فدائية الفرد الذى يضحى بنفسه من أجل المجموع : (واعلم - ياأخى - أن دولة اهل الخير[٤٨] يبدأ أولها من قوم علماء حكماء ، وخيار فضلاء ، يجتمعون على رأى واحد ، ويتفقون على مذهب واحد ، ودين واحد ، ويعتقدون بينهم عهدا وميثاقا : ألا يتجادلوا ولا يتقاعدوا عن نصرة بعضهم بعضا ، ويكونون كرجل واحد فى جميع أمورهم ، وكنفس واحدة فى جميع تدبيرهم فيما يقصدون من نصرة الدين ، وطلب الآخرة)[٤٩] .

(وأعلم أيها الاخ البار الرحيم - أيدك الله وإيانا بروح منه - أنه ليس من جماعة يجتمعون على تعاون فى أمر من أمور الدنيا والآخرة أشد نصيحة بعضهم لبعض من تعاون إخوان الصفا . . وينبغى أن تعلم أن العلة التى تجمع بين إخوان الصفا هى أن يرى ويعلم كل واحد منهم أنه لا يتم له ما يريد من صلاح معيشة الدنيا ، ونيل الفوز والنجاة فى الآخرة ألا بمعاونة كل واحد منهم لصاحبه ، وأما السبب الذى يحفظهم على تلك الحال ، فهو المحبة والرحمة

---

(٤٦) انظر : تلبيس إبليس لابن الجوزى ص ١٦١ - ١٦٩ .

(٤٧) الرسائل ٤/٢٩٧ ، ٢٩٨ .

(٤٨) يلاحظ تحول التعبير من (جماعة اخوان الصفا) الى (دولة اهل الخير) وما يتضمنه هذا التحول من كشف للهدف الذى بدأ علميا مصطبغا بصبغة صوفية فلسفية ، ثم أصبح فيما بعد سياسيا واضحا .

(٤٩) الرسائل ١/١٣١ .

والشفقة ، والرفق من كل واحد منهم ، والمساواة فيما يريد ويحبّ ويبغض ويكره لنفسه)[٥٠] .

الاتحاد فى الرأى والمعتقد ، والتعاون على أمور الدنيا ، والتفانى المطلق فى سبيل المجموع . . ما هى إلا مقدمات صحيحة إلى اقامة تنظيم سياسى ، لا يخدعنا - بعد ذلك التعبير عنه بأنه روحانى او نحوه (وينبغى لنا - أيها الاخ - أن نتعاون ونجمع قوة أجسادنا ، ونجعلها قوة واحدة ، ونرتب تدبير نفوسنا تدبيرا واحدا ، ونبنى مدينة فاضلة روحانية)[٥١] .

ويتضح الهدف السياسى أكثر ، عندما يقرر إخوان الصفا انه ينبغى أن يكون لأهل المدينة سيرة جميلة كريمة حسنة ، يتعاملون بها فيما بينهم ، وأن يكون لهم (سيرة اخرى) يعاملون بها أهل المدن الجائرة[٥٢] .

ويكفى أن نسوق مثالا يوضح تلك (السيرة) التى يشير إليها إخوان الصفا وخاصة فيما يتعلق بمعاملاتهم بعضهم بعضا داخل مدينتهم (الروحانية) (فينبغى لإخوانهم ممن قد رزق المال والعلم جميعا أن يؤدى شكر ما أنعم الله ، جل وعز ، به عليهم بأن يضم اليه أخا من اخوانه ممن قد حرمهما جميعا . ويواسيه من فضل ما أتاه الله من المال ليقيم به حياة جسده فى دار الدنيا ، ويرفده ، ويعلمه من علمه لتحيا به نفسه للبقاء فى دار الآخرة .

ولا ينبغى له أن يمن عليه من المال ولا يستحقره ، ويعلم أن الذى حرم أخاه هو الذى أعطاه . وكما أنه لا يمنّ على ابن له جسدانى فيما يربه وينفقه عليه من مال . ويورثه ما جمعه من المال بعد وفاته ، كذلك لا يجب أن يمن على ابنه النفسانى ، لأنه إن كان ذلك ابنه الحيوانى ، فهذا ابنه النفسانى[٥٣] .

---

(٥٠) الرسائل ٤/٢١٨ ، ٢١٩ ، وأيضا ٤/١٨٠ .
(٥١) الرسائل ٤/٢٢٠ .
(٥٢) الرسائل ٤/٢٢٠ .
(٥٣) الرسائل ٤/١١٥، ١١٦ .

وأما من رزق المال، ولم يرزق العلم من إخواننا ، فينبغى له أن يطلب أخا ممن قد رزق العلم ، ويضمه إليه ، ويواسيه : هذا من ماله ، ويرفده هذا من علمه ، ويتعاونان جميعا على إصلاح أمر الدين والدنيا .

وينبغى للأخ ذى المال ألا يمنّ على الاخ ذى العلم بما يواسيه من ماله ولا يحتقره لفقره[٥٤] .

(وينبغى للأخ ذى العلم والحكم ألا يحسد ذا مال له ، ولا يستحقره لجهله ، ولا يفتخر عليه بعلمه ، ولا يطلب منه عوضا فيما يعلمه لأن مثلهما فى صحبتهما وتعاونهما : هذا لهذا بعلمه ، وهذا لهذا بماله ، كمثل اليد والرجل فى اتصالهما بالجسد ، وخدمتهما وتعاونهما فى إصلاح الجملة)[٥٥] .

وأما من رزق العلم ، ولم يرزق المال ، ولا يجد من يواسيه من إخواننا فينبغى له ان يصبر وينتظر الفرج ، فإنه لابد أن يؤيده الله ، عز وجل بأمرٍ أو بأخ يخفف عنه ما يحتمله من ثقل الفقر[٥٦] .

(فهكذا ينبغى أن يكون تعاون إخوان الصفا فى طلب صلاح الدين والدنيا)[٥٧] .

أما عن (السيرة الاخرى) التى يدخرها إخوان الصفا لمعاملة المدن الجائرة فإن رسائلهم تسكت عن هذا الجانب ، ونحن بذلك نكون قد افتقدنا خيطا مهما فى مجال تحديد ملامح أعدائهم ، ونعتقد أن الحصول عليه كان سيلقى كثيرا من الضوء على الشخصية الحقيقية لإخوان الصفا أنفسهم .

---

(٥٤) الرسائل ٤/١١٦ .

(٥٥) الرسائل ٤/١١٧ .

(٥٦) الرسائل ٤/١١٨ ، والواقع انهم فى مكان آخر (٤/٢١٥) يؤكدون لهذا الانسان ضرورة معاونتهم له بكتاب توصية الى سلطان ، أو وال ، أو صاحب صناعة من أتباعهم المنتشرين فى كل مكان ولاممثلين لمختلف الطبقات ان يأخذ بيده من وهدة الفقر .

(٥٧) الرسائل ٤/١١٧ .

كل ما تصرح به الرسائل هو موقف الجماعة من العضو الذى يخرج على نظامها . وهو موقف صارم يتخذ صورة المقاطعة التامة ، فمن لم يرض بشرائط العقل ، وموجبات قضاياه ، ولم يقبل تلك الشرائط التى أوصينا بها أخواننا ، أو خرج عنها بعد الدخول فيها ، فعقوبته فى ذلك ان نخرج من صداقته ، ونتبرأ من ولايته ، ولا نستعين به فى أمورنا ، ولا نعاشره فى معاملتنا ، ولا نكلمه فى علومنا ، ونطوى دونه أسرارنا ، بمجانبته إخواننا)[٥٨] .

أخيرا . . يأتى الدور الذى يصبح فيه عضو جماعة إخوان الصفا مؤهلا لأن يقود ويوجه ، لكنه قبل أن يخرج للجمهور داعيا للاصلاح عليه أن يبدأ بأهل بيته أولا : (كيف يجوز للعاقل العالم أن يكون له أهل يتدينون بدين ، ويذهبون إلى مذهب هو يأمر اصحابه بخلافه) .[٥٩] .

ويوضح إخوان الصفا لصاحبهم الطريقة التى بها يعامل نساءه : (فيكون صفحك إليهن كثيرا ، ومن غير إشعار منهن أن تكون مراعيا احوالهن ، ولا يغرك منهن صلاح تعرفه فيهن ، فقد أنبأناك أن تلونهن كثير ، وأن استفسادهن سهل يسير ، إلا من عصمها الله تعالى ، وقليل ما هم .

وأما أولادك وغلمانك وحواشيك فأياك ان تظهر لهم فاقة بعد أن تقوم بواجبك المفروض عليك . فإنه متى ظهر لهم منك اختلال أو حاجة نقصت منزلتك ، وقصر موضعك ، فلم يقم لك وزن ، ولا قامت لك هيبة .

أما الأصحاب فاعلم أن سياستهم لا تكون إلا بعد المعرفة بهم ، والاطلاع عليهم ، ومعرفة أحوالهم . . ألا يخفى عليك من أمرهم صغيرة ولا كبيرة لتسوس كل واحد منهم

---

(٥٨) الرسائل ٤/١٨١ .
(٥٩) الرسائل ٤/٥٨ .
(٦٠) الرسائل ٤/٢٩٩ .

السياسة التى تليق به دنيا ودينا .[٦١] .

واحرص أن تباعد بين معرفتهم بك وبينهم لئلا يطلعوا عليك كما اطلعت عليهم فيأتوك من حيث أمنت ، لأنه ليس كل من صاحبك يحق لك أن تحتفظ به[٦٢] .

بذلك نكون قد عرضنا للمنهج التربوى الذى أُعد لتخريج جماعة إخوان الصفا ، لكننا نرى من تمام الصورة أن نعرض لنظام هذه الجماعة ، ومراتب الأعضاء فى هذا النظام : (إن قوة نفوس إخواننا فى هذا الامر الذى نشير إليه ، ونحث عليه ، على أربع مراتب :

من ١٥ سنة : الإخوان الابرار الرحماء ، وصفتهم صفاء جوهر النفوس ، وجودة القبول، وسرعة التصور .

من ٣٠ سنة : الإخوان الاخيار والفضلاء، وصفتهم مراعاة الاخوان، وسخاء النفس ، واعطاء الفيض ، والشفقة والرحمة والتحنن على الاخوان .

من ٤٠ سنة : الإخوان الفضلاء الكرام ، وصفتهم أنهم ذوو السلطان والأمر والنهى والنصر والقيام بدفع العناد والخلاف عند ظهور المعاند المخالف لهذا الأمر بالرفق واللطف والمداراة فى اصلاحه .

من ٥٠ سنة : وصفتهم التسليم، وقبول التأييد ومشاهدة الحق عيانا ، وعليهم تنزل قوة المعراج ، وبها تصعد النفوس إلى ملكوت السماء ، فتشاهد أحوال القيامة ، وهى التى ندعو اليها إخواننا كلهم فى أى مرتبة كانوا[٦٣] .

ولا تتحقق هذه المراتب بهذا التسلسل إلا إذا توافر بين الأعضاء فى كل مرتبة عنصر الطاعة

---

(٦١) يقارن هذا النص بما أورده الغزالى عن حيلة الزرق والتفرس لدى الباطنية - الباب الثالث الفصل الاول من كتاب (فضائح الباطنية) تحقيق د . عبد الرحمن بدوى .

(٦٢) الرسائل ٤/ ٢٩٩ .

(٦٣) الرسائل ٤/ ١٢٠ .

المطلقة للرئيس ، وهم يقرون أن (الطاعة) جوهر الدين كله : (فهذا هو الدين النبوى الحنيفى ، والمنهاج السنى ، والسيرة الملكية ، وهو أن يكون كل مرؤوس ينقاد لطاعة رئيسه ، ولا يعصيه فيما يأمره ، وينهاه عنه فيما فيه صلاح للجميع)[٦٤] .

(ثم اعلم أنه ليس من مرتبة فى الدنيا ارفع ، ولا فضيلة أحسن من الرئاسة فى العقلاء لذوى السياسات والتدبير، ولا نعمة ألذ ، ولا رتبة أحسن من انقياد العقلاء للرئيس ، وطاعتهم له)[٦٥] .

بقى أن نسأل : إلى أى مدى تحقق هذا المنهج ، واكتمل هذا التنظيم ؟

إن الرسائل نفسها تجيب عن ذلك بأن الدعوة كانت منتشرة بين عدد ليس بالهين من مختلف الطوائف : (إن لنا اخوانا وأصدقاء من كرام الناس ، وفضلائهم ، متفرقين فى البلاد :

فمنهم : طائفة من أولاد الملوك ، والامراء ، والوزراء ، والعمال، والكتاب .

ومنهم : طائفة من أولاد الاشراف ، والدهاقين ، والتجار ، والتناء(المرابطين) .

ومنهم : طائفة من أولاد العلماء ، والادباء ، والفقهاء ، وحملة الدين ،

ومنهم : طائفة من أولاد الصناع المتصرفين ، وأمناء الناس[٦٦] .

ولكن ما ورد عن أبى حيان التوحيدى - وهو غير كاف[٦٧] - يدل على أن إخوان الصفا كانوا يمثلون جماعة شبه منبوذة ، لا تحظى بالتأييد الكامل من كل الطبقات ، كما يشير إلى أن الدعوة

---

(٦٤) الرسائل ٣/٤٢٤ .
(٦٥) الرسائل ٣/٤٢٥ .
(٦٦) الرسائل ٤/٢١٤ .
(٦٧) الامتاع والمؤانسة حـ ٢ ، الليلة ١٧ .

كانت غامضة بالنسبة الى السلطة الحاكمة حينئذ[٦٨] .

ومهما يكن من شيء ، فإن هذا (المنهج) الذى رسم بدقة فى القرن الرابع الهجرى قد استغل فيما بعد لدى كثير من الجماعات السرية التى كانت تخرج على السلطة فى عصور مختلفة .

فقد وجدت (الرسائل) فى حصون الاسماعيلية الجبلية ، فى فارس والشام ، وهذا دليل على استخدامها كبرنامج لحركاتهم الثورية[٦٩] كما انتقلت إلى الأندلس منذ عهد مبكر[٧٠] ، ومن المتوقع أنها عملت عملها فى جماعات ابن مسرة الجبلى ، وابن المجاهد . . وبالجملة ، فقد كان لرسائل إخوان الصفا أثر واضح فى معظم مفكرى الإسلام الذين جاءوا بعدهم .

---

(٦٨) يتضح هذا من سؤال الوزير أبى عبد الله العارض للتوحيدى عن الجماعة ، وأهدافها ، وفلسفتها - انظر المصدر السابق ، نفس الليلة .

(٦٩) يقول ماكدونالد : (وحينما استولى المغول على قلعة ألموت وجدوها غنية برسائل اخوان الصفا) انظر : اخوان الصفا للاستاذ عمر الدسوقى ص ٩٩ ، ١٠٠ .

(٧٠) قام الطبيب الفيلسوف الكرمانى بنشر رسائل اخوان الصفا فى سرقسطة ، وكان الذى أتى بها الى الاندلس مسلمة المجريطى - انظر : تاريخ الفكر الاندلسى لبالنثيا ص ٣٣٣ ، ترجمة د . حسين مؤنس .